# الفصل الثانى

## الشـــواهد التى تؤكـــد تأثر الفكر الأوربى بتراث العرب فى الأدب والفلسفة والجغرافيا والتـــاريخ والفنون والعـــمـــارة والموســـيـــقى

obeikan.com

obeikan.com

# الشواهد التى تؤكد تأثر الفكر الأوربى بتراث العرب فى الأدب والفلسفة والجغرافيا والتاريخ والفنون والعمارة والموسيقى

من المعروف أن كل حضارة فى التاريخ استفادت من جهود السابقين لها، وإلا لما تقدمت الحضارة العالمية، ولأصبح لزاما على كل أمة أن تبدأ البناء من أساسه.

لقد استوعب العرب الفكر الهندى والفارسى واليونانى ولم يكن دورهم هو مجرد الحفاظ على هذا التراث القديم من الضياع فحسب بل أضافوا إليه الكثير، كما قاموا بتطوير هذا التراث وتصحيح مساراته مما ساعد على ظهور النهضة فى أوروبا فى القرن الخامس عشر، والذى بدونه لتأخرت هذه النهضة قرون عدة.

لقد قدم المسلمون للثقافة الإنسانية تراثا ضخما فى شتى ميادين العلم والثقافة والأدب، وكانت كتبهم هى المراجع الأساسية التى ترجمت إلى اللاتينية ليرتشف الأوروبيون من مناهلها، وظلت قرونا بمثابة المصادر الرئيسية التى أنارت الطريق أمام العلماء والباحثين فى جامعات أوروبا حتى بزغت شمس نهضتها، وفيما يلى نعرض للشواهد التى تؤكد تأثر الفكر الأوروبى بالفكر الإسلامى، والتى تبين مدى مساهمة العلماء المسلمين فى نشأة العلم الحديث خاصة فى الأدب، والفلسفة، والجغرافيا،والتاريخ، والفنون، والموسيقى، والرياضيات، والفلك، والكيمياء، والطبيعة والطب والصيدلة وغيرها مما كان له أكبر الأثر فى المساعدة على ظهور النهضة الأوربية الحديثة.

## ١ ـ الأدب

يختلف عطاء العرب للنهضة الأوربية فى ميدان الأدب خاصة الشعر عنه فى أى ميدان آخر من العلوم، فالشعر العربى كان عربيا خالصا لم يتأثر بآداب حضارات أخرى سابقة بل نبت فى صحراء

الجزيرة العربية نبتا أصيلا ولم يسهم في تطوره إلا قوم استظلوا بالحضارة العربية وتأثروا بها، فقد تطور الأدب في العصر العباسي تطورا كبيراً، ونهج الشعراء فيه مناهج جديدة في المعاني والموضوعات والأساليب وغير ذلك من فنون الشعر المختلفة التي تناسب ما انتشر في العصر العباسي من ترف وحضارة. ولاسيما في بغداد، وكان من أشهر شعراء تلك الفترة «أبو نواس» الذي ذاعت قصائده في الغزل والخمر والصيد، «وأبو تمام» المشهور بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر «والبحتري» صاحب المدائح الخالدة و«ابن الرومي» المعروف بغزارة شعره، و«أبو العتاهية» الذي اشتهر بالحكمة والغزل الرقيق، و«المتنبي» الذي اشتهر بالفخر و«أبو العلاء المعري» شاعر الحكمة وغيرهم كثيرون هذا إلى جانب الشاعرات والأديبات من النساء اللائي لعبن دورا هاما في الحياة الأدبية في المجتمع الإسلامي مثل «رابعة العدوية» التي سلكت طريق الزهد والتصوف، والأميرة «علية بنت المهدي» صاحبة الشعر الرائق والغناء الراقي ومثل «العباسة بنت المهدي» التي لعب الخيال دورا كبيرا في القصص التي أحاطت بها ومثل «عايدة الجهنية التي قال عنها السيوطي أنها كانت أديبة شاعرة فصيحة فاضلة كاتبة» (١).

لقد تأثرت الآداب الأوربية بالأدب العربي خلال العصور الوسطى وبداية الحديثة، حيث نجد تأثيرات عربية واضحة في شعر المناجاة والشعر الشعبي، والحكم، والأمثال، كما حاز القصص الإسلامي شهرة عظيمة وأخذ يزدهر في بلدان أوروبا في القرن الثاني عشر، كما اتجه الأوربيون شطر الأدب العربي المعروف بالإبداع. وقد أكد ذلك المستشرق جب بقوله «أن خير ما أسدته الآداب الإسلامية لآداب أوروبا أنها أثّرت بثقافتها وفكرها في شعر العصور الوسطى ونثرها»(٢) وأن الآداب الشرقية التي لها مثيلاتها في الأدب الغربي كانت بمثابة المفتاح الذي طرقه الغرب، وهذه الآداب التي كسبت إعجاب الأوربيين هي التي أنارت الطريق للأدب الغربي. وإلى جانب ذلك فقد أوضح الشاعر الإيطالي «دانتي» بأن الشعر الإيطالي ولد في صقلية حيث كان للعرب حضارة زاهرة هناك، وقد شاع نظم هذه الشعر في إقليم بروفانس في جنوب فرنسا، وانتشر من هذا الإقليم على يد الشعراء الجوالين الذين عرفوا باسم «التروبادور». ومن المعروف أن شعر التروبادور الذي ظهر في صقلية ونشأ في بلاط الملك «فردريك الثاني» الذي كان العديد من الشعراء المسلمين يجتمعون فيه جاء عن طريق الاقتباس من الأدب العربي الأندلسي الذي امتاز بالرومانتيكية البالغة في الغزل الرقيق، والرثاء الباكي، وفي تقاليد الحب، والفروسية، ومعاناة الحرمان، والتغني بالمرأة.

(١) موسوعة العالم الإسلامي ص ٤٩ .

(٢) جب : تراث الإسلام ص ١٨٩ - ١٩٠.

وقد أكد ذلك المستشرق «روبرت بريفو» Robert Briffault بقوله إن شعر التروبادور إنما هو وليد الشعر العربى وأن أدباء الأندلس كانوا قد تحمسوا لهذا النوع الجديد من الشعر واعتبروا ظهوره بينهم ثورة أدبية.

وإلى جانب ذلك فقد أولع الأوربيون بالأدب العربى فطبعت قصص «ألف ليلة وليلة» العديد من الطبعات باللغتين الإنجليزية والفرنسية خاصة وأنها ألهبت خيال القراء، وعرفت أوروبا اسم «عمر الخيام». كما اقتبس بعض الكتاب الأوربيون موضوعات أدبية قاموا بنقلها إلى الأدب الغربى، فالكاتب الإيطالى «بوكاشيو» الذى يعد أحد أعلام النهضة الإيطالية ساير فى كتابه المسمى «الأيام العشرة» قصص «ألف ليلة وليلة» التى كانت منتشرة حكاياتها فى مصر والشام، وقد تضمن هذا الكتاب مائة حكاية على غرار «ألف ليلة وليلة" وأسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال الذين اعتزلوا فى بعض ضواحى المدن خوفا من تعرضهم لمرض الطاعون، وفرضوا على كل منهم أن يقص حكاية على أصحابه فى كل صباح للتغلب على الفراغ والملل الذى كانوا يشعرون به. وقد انتشرت هذه الحكايات فى بلدان أوروبا، واقتبس منها الكاتب الإنجليزى «وليم شكسبير» موضوع مسرحيته «العبرة بالخواتيم» «well ends that well is All». وإلى جانب ذلك فهناك مجموعة من المستشرقين يرون أن «رحلات جاليفر» التى ألفها «سويفت» ورحلة «روبنسون كروزو» التى ألفها «ديفوى» استمدت أفكارهما من "ألف ليلة وليلة"، يضاف إلى ذلك أن الشعر والنثر الإسلاميين أثّرا فى الشعر الإيطالى تأثيراً واضحا وأبرز الأدلة على ذلك الكوميديا الإلهية Commedia La "لدانتى" (١٢٦٥-١٣٢١) الذى أقام فى صقلية فترة خلال عهد الملك فردريك الثانى الذى كان عاشقا للثقافة الإسلامية. وقد استطاع «دانتى» أن يتوج بها الأدب والشعر الأوربيين فى القرن الرابع عشر وفى تلك الملحمة وصف «دانتى» العالم الآخر، وتخيل ما شاهده هناك بشكل تجلت فيه عبقريته كشاعر، فذكر ما شاهده خلال زيارته للجحيم. ثم أثناء انتقاله إلى المطهر والفردوس موضحا ما فيها من نعيم وشقاء، كما تصور أن الشاعر الكبير «فرجيل» كان يصحبه فى هذه الرحلة، وأنه كان بمثابة المرشد له وخلال ذلك استطاع دانتى أن يجسد ما تخيله تجسيدا رائعا فى محاولة منه لمعرفة أسرار ما بعد الموت.

ومن يقارن بين هذه الكوميديا وبين قصة «الإسراء والمعراج لأبى العلاء المعرى يجد أن الكوميديا مستوحاة من هذه القصة التى ألهمت دانتى كثيرا من المفاهيم كما أنها مستوحاة من كتاب «محى الدين بن عربى» الأندلسى «الفتوحات المكية» الذى وضعه قبل ميلاد «دانتى» بخمس وعشرين سنة،

وكذلك من فكر ابن مسرة أستاذ ابن عربى وصاحب المدرسة الفلسفية المعروفة، فقد نقل دانتى من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى بعض الأفكار عن التصوف وإن كان قد عالجها بذكاء، ويؤكد ذلك ان هناك روحا مشتركة تتخلل القصيدتين من ناحية المعنى الأخلاقى المنبثق عن التصوف[١] كما أنه أخذ من ابن عربى وابن مسرة أفكارهما حول الجحيم والجنة. وقد أكد العديد من المستشرقين ذلك ومن أبرز هؤلاء ما ذكره القس الإسبانى «ميجيل بلاثيوس» فى كتابه «الإسلام والكوميديا الإلهية» حيث يقول فى مقدمته (لاشك أن ابن عربى" وأستاذه ابن مسرة كانا رائدين لدانتى) و(أن الكوميديا نفسها عبارة عن قصة محوّرة عن قصة أخرى معروفة فى الأدب الدينى الإسلامى وهى قصة المعراج) و(أن المأثورات الإسلامية إنما هى النموذج الأصلى الذى استوحاه دانتى)[٢]. وهكذا كانت الأصول الإسلامية بمثابة الأساس الذى بنيت عليه الكوميديا الإلهية، تلك القصيدة التى تمثلت فيها ثقافة الأوربيين فى القرون الوسطى فيما يتعلق بالحياة الأخرى فقد استقى «دانتى» بطريقة بمباشرة أو غير مباشرة عن المصادر الإسلامية أفكارا لقصيدته[٣] كما يؤكده وجود ثلاث مخطوطات لقصة الإسراء والمعراج بالإسبانية واللاتينية والفرنسية كان ملك طليطلة «الفونسو الحكيم» قد أمر بترجمتها إلى هذه اللغات عن الأصل العربى، وتم نشر هذه النصوص الثلاثة فى مدريد عام ١٩٤٩ تحت عنوان «معراج محمد» كذلك تأثر الأدب الأوروبى بالنثر العربى من ناحية أخرى وهى القصص التى تتخذ الحيوان محورا لها كما حدث فى نقل مجموعة القصص المعروفة باسم «كليلة ودمنة» [٤] إلى الإسبانية، وقصص الحكماء السبعة أو السندباد، يضاف إلى ذلك أن هناك ثلاث مجموعات قصصية من أصل شرقى كان لها على الآداب الأوروبية تأثير كبير فى العصور الوسطى، وأول هذه المجموعات «كليلة ودمنة» وهى من أصل هندى غير أنها لم تعرف طريقها إلى أوروبا إلا عن طريق النص العربى الذى ترجمه «عبد الله بن المقفع». ولم يكد هذا الكتاب يعرف فى أوروبا حتى اعتبره الأوروبيون المثل الأعلى لكتب المواعظ التى تلقى على ألسنة الحيوان والطير، لذلك تمت ترجمته إلى أكثر من أربعين لغة، وقد حاول الأوروبيون تقليده فى قصصهم وأبرز الأدلة على ذلك ما كتبه الراهب «رامون لول» Ramon Llull تحت اسم «كتاب الوحوش» وكذلك بعض أقاصيص «بوكاتشيو» Boccaccio المعروفة باسم «الليال العشر» هذا فضلا على أن النهج العام للعديد من القصص الإيطالى كان يتفق مع "كليلة ودمنة" ومع الف ليلة وليلة أيضاً.

(١) عبد المنعم الجميعى : العالم الاوربى فى التاريخ الحديث والمعاصر ص٣٠.
(٢) M.A.Palacios : Islam and the Divine Comedy.
(٣)عبد الرحمن بدوى : دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى ص ٤٩.
(٤) وضعها الفيلسوف الهندى بيدبا، وقام عبد الله بن المقفع بتعريبها .

يضاف إلى ذلك أن «قصة السندباد» تم نقلها إلى القشتالية فى عام ١٢٥٣ تحت عنوان «كتاب مكايد النساء وحيلهن».

أما عن القصص الفلسفية، فقد كان للقصص العربية أثر كبير على التفكير الأوروبى ولعل أوضح مثال لذلك هو «قصة حى بن يقظان» للفيلسوف الأندلسى «ابن طفيل» (١١١٠-١١٨٥) والتى تركز على التوفيق بين الدين والفلسفة وعلى بيان أن التأمل العقلى المحض والإيمان الحقيقى طريقان يؤديان إلى نتيجة واحدة وهى الاتصال بالله والاتحاد به، وقد وصف الإسبانى "بيلايو" هذه القصة فى كتابه «أصول الرواية» بانها أعظم آثار الأدب العربى أصالة وتفردا، لذلك فقد تمت ترجمة هذه القصة إلى لغات أوروبية عديدة كانت أولاها باللاتينية فى عام ١٦٧١ ثم ترجمت بعد ذلك إلى الإنجليزية والهولندية والألمانية والإسبانية والفرنسية وغيرها(١).

وقد قلد هذه القصة كاتب إسبانى يدعى «جراثيان» Gracian فى كتابه المسمى «الناقد» حتى أن الباحث الإسبانى «بيلايو» نُبه إلى ذلك بقوله إن الذى يقرأ الفصول الأولى من كتاب «الناقد» لا يتمالك دهشته للتطابق الغريب بينها وبين قصة حى بن يقظان. وهناك جانب آخر يُظهر أثر الأدب العربى فى الآداب الأوربية هو أن هذه اللغات وبخاصة الإسبانية اقتبست عددا غير قليل من الأمثال العربية ذكرها المستشرق «جوستاف لوبون» فى كتابه حضارة العرب(٢).

وخلاصة القول أن الأدب القصصى الإسبانى منذ القرن الرابع عشر وحتى السابع عشر الميلادى تأثر بمجموعات القصص العربى بشكل واضح، فقصص «الشطارة» الإسبانية يوُجد تشابه واضح بين شخصياتها وشخصيات ألف ليلة وليلة، وقصة «عنترة» وما فيها من فروسية وبطولة اهتم بها الموريسكيون وقلدوها، يضاف إلى ذلك أننا لو نظرنا إلى لغات الأوربيين الحالية نجد أن بها كلمات عربية دخلت إلى لغتهم وظل بعضها حتى الآن وعدل بعضها الآخر تعديلا طفيفا ومن هذه الكلمات القطن : Coton المسك Musk زعفران Suffron شراب Syrup، جرة Jar، ليمون Lemon، سكر Sugar وقد شاعت هذه المفردات وغيرها فى الإنجليزية وبعض اللغات الأخرى(٣)

(١) جورج يعقوب : أثر الشرق فى الغرب ص ٨١.
(٢) لوبون : مرجع سابق ص ٤٥١.
(٣) لمعرفة المزيد من هذه الكلمات يمكن الرجوع إلى دوزى : معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية وانظر أيضا ملاحق هذه الدراسة .

إن تشرب الأوربيين فى العصور الوسطى بموضوعات الأدب العربى كان يمثل أحد مظاهر الحركة الفكرية التى شملت تلك الفترة، خاصة وأن النظم الدينية الكنسية التى اتصفت بها العصور الوسطى كانت ضيقة، كما كانت اللاتينية تفتقر إلى قوة الإبداع مما جعل الناس يولون وجوههم شطر العالم الإسلامى الذى كان متفوقا فى الآداب والعلوم وغيرها فى ذلك الوقت .

لقد أشاد العديد من الباحثين والمستشرقين الأوربيين بأثر الحضارة العربية الإسلامية فى الحضارة الأوربية ومن هؤلاء نذكر الأب اليسوعى الإسبانى «خوان أندريس» Andres Juan الذى نشر فى أعوام ١٧٨٢-١٧٩٩ كتابا بالإيطالية فى سبع مجلدات بعنوان "أصول كل الآداب وتطورها وأحوالها الراهنة" ثم أعاد نشره فى روما بعد أن نقحه ووسعه بين سنتى ١٨٠٨ و١٨١٧ فجاء فى ثمانى مجلدات، وفى هذا الكتاب أكد المؤلف أن النهضة الأوروبية فى كل ميادين العلوم والآداب والفنون قامت بفضل ما ورثته من حضارة العرب.

وفى هذا الكتاب أيضا أوضح الأب «أندريس» تأثير الشعر العربى الواضح فى بواكير الشعر الغنائى الأوروبى[١] كما أكد ذلك المستشرق «نيكل» Nykl الذى قدم فى عام ١٩٣٣ دراسة عن الشعر الغنائى قدم فيها المزيد من الحجج الدالة على تأثير الشعر العربى فى شعر التروبادور.

ومما سبق يتضح مدى تأثر الآداب الأوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة تأثرا بارزا بالأدب العربى، الذى يعشقه الأوربيون لدرجة أن الصلة بينه وبين الآداب الأوروبية الحديثة لم تنقطع حتى اليوم فما زال هناك تواصل بين الأوروبيين وآداب اللغة العربية، وما زال اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب مستمرا على مر العصور والأجيال.

## ٢ ـ الفلسفة

كان أثر المسلمين فى الفكر الفلسفى الأوروبى فى العصور الوسطى كبيرا وكانت الأندلس من أكثر المراكز تأثيراً على الفكر الأوروبى الغربى حيث عرفت أوروبا فلاسفة الشرق عن طريقها. ومن المعروف أن روح البحث الدينى والفلسفى كانت شائعة فى عصر الخلافة الإسلامية، فقد ازدهرت فيه مذاهب فى الفلسفة وساهم فيها علماء المسلمين بقدر كبير، ومن المعروف أيضا أن المشرق الإسلامى

(١)الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) : أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية دراسة للدكتوره سهير القلماوى، بعنوان فى الأدب ص ٣٨.

عرف نشاط كبار الفلاسفة الذين أخذوا فى الاهتمام بفلاسفة اليونان وما سطروه فى كتبهم وبخاصة أرسطو، وأوصلوا هذا التراث بعد تنقيحه إلى أوروبا. وبمعنى آخر فإن ترجمة الأوروبيين للفكر الفلسفى العربى هى التى دفعتهم لدراسة الفلسفة اليونانية. وقد أكد ذلك «روجر بيكون» بقوله أن معظم فلسفة أرسطو ظلت عديمة الأثر فى الغرب لضياع المحفوظات التى حوت هذه الفلسفة أو لندرتها وصعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين الذين قاموا بنقل فلسفة «أرسطو» وشرحها وعرضها بشكل أكثر توضيحا. ويرجع العصر الذهبى لاهتمام العرب بالفلسفة اليونانية إلى عهد الخلافة العباسية خاصة فى عصرى الرشيد والمأمون، فقد أسس الرشيد بيت الحكمة فى بغداد، وجمع فيها الكتب المؤلفة والمترجمة، وجعلها مركزا لترجمة العديد من الكتب اليونانية والهندية، ثم توسع المأمون فى هذه المدرسة والحق بها عددا كبيرا من أشهر علماء عصره، وأصبحت مركزا للترجمة والنسخ والمطالعة والتأليف. ومن هذه المدرسة برزت أسماء حنين بن إسحق (٨٠٩-٨٧٣) الذى قام بترجمة «المقولات» الفيزيقا والأفلاق لأرسطو إلى العربية. كذلك قام حنين بترجمة أعمال أفلاطون «الجمهورية» و«القوانين» إلى العربية أما ابنه إسحق فقد ترجم «الميتافيزيقا» إلى العربية وإلى جانب ذلك فقد قام "ابن سينا" (٩٨٠-١٠٣٧) الذى يعد إمام البحث الفلسفى فى العالم الإسلامى ومن كبار ممثلى الفلسفة الأرسطية والذى أطلق عليه اسم الرئيس قام بتقديم شروح لأرسطو كانت بعيدة الأثر على العقل الأوربى. فقد نقل الغرب اللاتينى عن ابن سينا فكرته عن المقولات، كما درس كتبه وشرحها وعلق عليها.

ولقد كان لابن سينا مدرسة خاصة، وتتابع تلاميذه عليها جيلا بعد جيل. ومن خلالها استطاع «ابن سينا» أن ينفذ إلى الدراسات الكلامية والصوفية فى وقت كان فيه البحث الفلسفى محظورا، ولابن سينا فلسفته الخاصة التى تتركز حول ثلاث مسائل وهى مسألة «الفيض» و«النفس الإنسانية» و«نظرية المعرفة الإشراقية» وما تتضمنه من نظرات خاصة بالنبوة والمعجزات والتصوف.

أما عن مؤلفاته فهى «كتاب الشفاء» ويحتوى على أربعة أقسام رئيسية وهى المنطق والطبيعيات والرياضيات والإلهيات وقد ترجمت أجزاء منه إلى اللاتينية، وإلى بعض اللغات الأوروبية الحديثة، وكتاب «النجاة» وهو مختصر لكتاب الشفاء وفيه يدرس ابن سينا المنطق والطبيعيات والإلهيات، هناك شروح كثيرة لهذا الكتاب. وكتاب «الإشارات والتنبيهات» الذى يعد من أبرز كتب ابن سينا وقد قال عنه أحد تلاميذه أن «ابن سينا» كان قد خصصه لتلاميذه المقربين لا لغيرهم، وقد تمت ترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية، وكتاب «عيون الحكمة» وفيه دراسات فى المنطق والطبيعيات والإلهيات وقد نشره

الدكتور «عبد الرحمن بدوى» فى عام ١٩٥٢، وكتاب «القانون» فى الطب. ومن رسائله رسالة فى الحدود، ورسالة فى أقسام العلوم العقلية، ورسالة فى أجوبة مسائل سأل عنها «أبو الريحان البيرونى». أما «الفارابى» الذى عاصر الفترة التى التقت فيها الحضارة العربية الإسلامية الناشئة بالحضارة اليونانية فقد قام بشرح فلسفة أرسطو والتعليق عليها بشكل أعاد النظر فيها وأكمل ما نقص منها، لذلك كان شرحه فى الغالب أكثر فهما من النص الأصلى وأكثر عقلانية وأقرب إلى الصدق منه. بمعنى أن غرض «الفارابى» من الشرح كان تحويل النص إلى نظرية خالصة فى العقل. وبالتالى تزداد براهينه وتكثر حججه العقلية، ويصبح واضحا بذاته، كما يصبح حقيقة بعد أن كان رأيا. وبالتالى ظهرت نوعية الحضارتين فى مادة البحث وأمثلته سواء اللغوية أو الأدبية أو الدينية، فظهرت اللغة العربية فى مقابل اليونانية، والأدب العربى فى مقابل الأدب اليونانى، والعلوم الإسلامية فى مقابل العلوم اليونانية ومعنى ذلك أن الفارابى لم يكن شارح نص فحسب بل كان عاقل معان، فإذا كانت الألفاظ متباينة فإن المعنى واحد. فالفارابى لا يسير وراء أرسطو بل يعرض لموضوعاته ومعانيه، ويتعامل معها ككليات وماهيات مستقلة عن عباراتها وألفاظها ومصطلحاتها. لقد تعامل الفارابى مع أرسطو إما شارحا لكتاب كما هو الحال فى «المقولات» وفى «العبارة» أو مبينا قصد كتاب آخر كما هو الحال فى «الإبانة» عن غرض «أرسطو طاليس» فى كتاب «ما بعد الطبيعة» أو توضيح علم معين أو فرع من علم مثل كتاب «القياس» أو الجدل أو عارضا مذهب أرسطو ككل بمقارناته مع غيره داخل الفلسفة اليونانية. ولا يكتفى الفارابى بنصوص أرسطو بل يذهب لتأويلاتها المختلفة لدى الشراح[١].

وهكذا كان الفارابى من بين المفكرين العرب الذين كان لهم شأن كبير فى ميدان الفلسفة خاصة وأنه استطاع التأكيد على وحدة العقل الإنسانى وإمكانية التفاهم بين الشعوب. وإلى جانب ذلك لقد ضرب فلاسفة المسلمين فى الأندلس الرقم القياسى فى حرية الفكر وتركوا أبعد الأثر فى الفكر الأوروبى وكان من هؤلاء «ابن باجه» و«ابن طفيل» و«ابن رشد»، ولما كان أكثر هؤلاء تأثيرا فى غرب أوروبا هو «ابن رشد» بوصفه أكبر شارح لفلسفة أرسطو[٢]، ومن أكبر علماء العرب الذين ترجمت كتبهم إلى اللاتينية ظلت آراؤه تدرس فى جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر فإننا سنخصه بالتفصيل.

(١) أبو النصر الفارابى فى الذكرى الألفية لوفاته ٩٥٠ ميلادية القاهرة، ص ٧٣-٧٤.
(٢) عاشور : مرجع سابق ص ٨٨-٨٩.

يعد أبو الوليد بن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) رائدا من رواد التنوير فى العالم فقد عرفت أوروبا قدره قبل أن يعرف فى بلدان العرب والمسلمين. خاصة وأنه أيقظ العقل من سباته العميق بما قدمه من روائع للفكر الإنسانى، ومحاولاته جعل فكره ومؤلفاته كحلقة وصل فى حوار الحضارات والثقافات والأديان. اشتغل ابن رشد فى بداية أمره بالقضاء، واهتم بالفقه واستفاد من دراسة الفلسفة اليونانية بصفة عامة، وفلسفة أرسطو ومنطقه بصفة خاصة. نادى فى كتبه بوجوب الإقبال على علوم الآخرين، وحذّر من كل دعوة لا تقوم على العقل، ولجأ إلى القياس والاجتهاد والتأويل والجدل سواء فى المسائل الفقهية أو الأخلاقية أو فى الفلسفة والمنطق.

ويعد «ابن رشد» الشارح الأول لكتب «أرسطو» فى الطبيعيات وما بعد الطبيعة والمنطق والنفس، وتمتاز شروحه المنطقية بعمق الفهم وحسن العرض، وقد ظلت أوروبا قرابة الألف عام فى العصور الوسطى لا تعرف شيئا عن المعلم الأول أرسطو حتى ترجمت بحوث «ابن رشد» وشروحه لأرسطو عن العربية إلى اللاتينية، ولا يزال قدر من شروح ابن رشد فى صورها المختلفة محفوظا فى اللغة اللاتينية دون أن يعثر أحد على أصوله العربية، ونستطيع أن نقرر أن «ابن رشد» عرُف فى اللاتينية أكثر مما عرف فى العربية وأحدث فى الفكر الأوروبى إبان العصور الوسطى حركة ونشاطا لا نظير لهما وامتد أثره إلى التاريخ الحديث، فقد استطاع الفيلسوف الفرنسى رينان (E. Renan) أن يصور ذلك تصويرا صادقا، وإن كان قد أصدر أحكاما متفاوتة عن ابن رشد فى كتابه المشهور «ابن رشد والرشديون اللاتينيون» فأحيانا يقول أنه لم يقلد أحدا من سابقيه، وأحيانا يذكر أن فلسفته نسخة مكررة من ابن سينا. وعلى أى حال فإنه طوال ثلاثة قرون من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر ظل الرشديون يدرسون ويبحثون، وينشرون تعاليم أستاذهم، التى ساهمت فى بزوغ عصر النهضة ومهدت لظهور تاريخ أوروبا الحديث لدرجة أن الكل يجمع على أن «ابن رشد» بجانب أنه الشارح الكبير لأرسطو والمعبر عن آرائه، فإن أهم ما يتميز به مذهبه الفلسفى هو نظريته الخاصة بالتوفيق بين الدين والعقل.

وإلى جانب ذلك فهناك مستشرق آخر كان أكثر انصافا لابن رشد وهو «بالاسيوس» Palacios الإسبانى الذى أوضح أن توما الأكوينى (١٢٢٥-١٢٧٤) الذى يقال أنه أكبر خصوم ابن رشد فى العالم المسيحى أفاد من كتب ابن رشد فائدة كبيرة فى تأليفه مذهبه الدينى الفلسفى، كذلك حدد «بالاسيوس» كيف أخذ «الأكوينى» عن «ابن رشد» نظريته فى التوفيق بين العقل والعقيدة، وعجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية ليست إلا مقابلا لما كتبه ابن رشد فى باب "فصل المقام فيما بين الحكمة

والشريعة" . هذا وقد سلك كل منهما طريقا واحدا فى معالجة وجود الله ووحدته، وقد بلغ من تأثر توما الاكوينى بفلسفة «ابن رشد» أن كتاب «الخلاصة» لتوما يحوى بعض أفكار إسلامية الأصل مما يؤكد أن الأثر الذى تركه "ابن رشد" فى عقلية الأوربيين لم يكن مجرد شروح وتعليقات لكتاب أرسطو بل كان أكثر من ذلك(١).

وهكذا أسهم الفليسوف القرطبى «ابن رشد» فى تبنى وإثراء حوار الحضارات، وفى أنها علاقة حوار وتواصل، وليست علاقة صراع وتصادم. لقد شاء ابن رشد بوعى واقتدار أن يدعم هذا الحوار ويوثقه ليعيد العلاقة بين الحضارتين العربية الإسلامية، واليونانية برواية علمية دقيقة وفهم صحيح لمواد الحوار تصحيحا لما قد وقع من خلط، ويتضح ذلك من شخصية ابن رشد العلمية ومؤلفاته الخاصة، ومن شروحه وتعليقاته وتلخيصاته لأرسطو فقد اعتمد ابن رشد فى حواره مع الحضارتين الغربية اليونانية، والعربية الإسلامية منهجية مميزة التزم فيها بلغة الحوار التى يجب أن تتسم بالتعقل والمنطق وأخلاقيات الحوار.

لقد أنزل ابن رشد العقل فى حواراته إلى المستوى الإنسانى بعد أن كان ابن سينا والفارابى وإخوان الصفا قد رفعوه إلى ما فوق ذلك، وكذلك وجد ابن رشد أنه لا تعارض بين الفكر الإنسانى الحر وبين الشريعة الإسلامية لذلك نادى باستخدام العقل فى البرهنة على الأمور الدينية، وحرص على إثبات إقامة الحضارة الإسلامية على العقل، وأن المجال يجب أن يكون مفتوحا أمام كل دارس للوصول إلى الحقيقة، كما انتقد بعض آراء أرسطو خلال شروحه للفلسفة الأرسطية . مما جعل الكنيسة فى أوروبا ترى فى ذلك تهديدا لثوابتها، وجعلها تنقسم على نفسها فيما ذهب إليه ابن رشد، ورغم ذلك فقد تبنى بعض مفكرى أوروبا من نواة عصر التنوير آراء ابن رشد الفلسفية وتمسكوا بها. وعلى الرغم من انتقاد ابن رشد لبعض آراء أرسطو فإنه كان شديد الإعجاب ببعض جوانبها لذلك فإنه عهدها بالشرح والتفسير والتلخيص مبرزا الجوانب المهمة فيها، ساعيا إلى تقديمها بصورة مبسطة واضحة ليسهل فهمها لذلك حظيت هذه الشروح بشهرة واسعة فاقت شهرته فى المجالات الأخرى التى عرفه بها الغرب مثل الطب خاصة وأن ابن رشد كان قد أعلى من دور العقل،وجعله معياراً للمعرفة الصحيحة حتى يمكن تخطى ظلمات الجهل والتقليد إلى نور المعرفة والتقدم.

(١)القوصى : الحضارة الإسلامية ص ٣٠٥.

أما كتبه الخاصة فأكثرها شهرة كتاب «تهافت التهافت» وكتاب «الكشف عن مناهج الأدلة» وكتاب «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» «وكتاب فى الفحص عن الاتصال بالعقل الفعال» و«رسالة فى العلم القديم» و«كتاب التحصيل» وفيه جمع اختلاف أهل العلم من الصحابة والتابعين وتابعيهم و«كتاب المقدمات فى الفقه» و«كتاب نهاية المجتهد» وكتب ومقالات أخرى فى الطب والمنطق.

وهذه الكتب تم نقلها إلى اللاتينية بعد أن عهد رئيس كنيسة طليطلة إلى جماعة الدومينيكان بتعلم اللغة العربية، وبنقل الكتب الإسلامية وعلى رأسها كتب «ابن رشد» إلى اللاتينية. وإذا كان لآثار ابن رشد نتائج مختلفة فى العالم الأوروبى لدى كل من رجال الكهنوت والمفكرين الأحرار الذين عارضوا الكنيسة بفلسفة أرسطو التى شرحها ابن رشد، وسموا أنفسهم بالرشديين اللاتينيين فإن نظرة المثقفين الأوروبيين لابن رشد، منذ النصف الثانى من القرن العشرين بدأت تتخذ صيغة أكثر إنصافا وأكثر ميلا إلى محاولة فهم وجهات نظر الآخرين، وذلك شئ مثمر فى مجال الفكر الإنسانى.

وهكذا كانت الفلسفة الرشدية من التيارات الفلسفية التى أدت دوراً فى صياغة فلسفة الفكر الإنسانى، وفى إثارة الجدل بين التنوير وأعداء التنوير لدرجة يمكن معها القول بأن فلسفة ابن رشد كانت إحدى جذور التنوير الأوروبى، وأن هذا الفيلسوف كان المصدر الأول للتنوير العقلى فى عصر النهضة فى أوروبا، فقد أضاف إلى مذهبه العقلانى اتجاها نقديا فرض على فلاسفة الغرب الاعتراف به. فقد واجه «ابن رشد السياسة» لأول مرة فى تاريخ الفكر العربى الإسلامى بخطاب سياسى صريح يتضمن نقدا لاذعا للنظم السياسية والاجتماعية، كشف فيه الاعتداءات الصارخة على حقوق الإنسان فى الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ودافع عن المرأة وأعلى من قيمتها موضحا أنها لم تخلق للولادة وإرضاع الأولاد بل لديها القوة الكامنة التى تمكنها من القيام بأعمال عظيمة. إن العالم الآن فى أمس الحاجة إلى الاستفادة من دعوة ابن رشد إلى الانفتاح على أفكار الأمم الأخرى، وعلى الاستزادة من المعرفة العالمية وهكذا كان ابن رشد أبرز فيلسوف عرفته الثقافة العربية الإسلامية، وأحد الواضعين لفلسفة التنوير فى الفكر الغربى اللاتينى، ولعل فى ذلك أكبر رد على فكرة صراع الحضارات التى تطلقها بعض أبواق الغرب فى الوقت الحالى فالفكر الإنسانى التنويرى الحضارى العقلى يقوم دائما على الحوار وليس الصراع. فقد انقضى الزمن الذى كانت تفصل فيه الثقافات العالمية الكبرى بعضها عن بعض، وتقام بينها حواجز منيعة لا تسمح باتصال أو تبادل وأصبحنا نؤمن بان الحضارات القديمة أخذت وأعطت، كما يجب أن تعطى الحضارة الحديثة بمقدار ما أخذت.

## ٣ - الجغرافيا

لا شك فى أن اتساع الدولة الإسلامية وامتدادها على مساحات فسيحة فى قارتى آسيا وأفريقيا حتَّم على المسلمين ضرورة الوقوف على أحوال البلاد المفتوحة ومعرفة الطرق التى تربط بين أجزاء هذه الدولة الفسيحة والمسافات بين الأقطار بعضها البعض، مما يتطلب وصفا دقيقا للأمكنة والبقاع وتفصيلا وافيا لأحوال شتى الأقطار وما تنتجه من غلات.

ولما كانت رغبة العرب فى المعرفة جامحة، فقد أدى ذلك إلى وقوفهم على التراث الثقافى للحضارتين اليونانية والرومانية ورغبتهم فى بناء حضارة عالمية لم تكتف بالحدود المحلية. فأخذوا فى نقل كنوز المعرفة القديمة من الغرب والشرق ثم أضافوا إلى هذه العلوم ما أدى إلى المساهمة فى التقدم الإنسانى، فكانت كتاباتهم من الأسس التى استمدت منها النهضة الأوروبية مقوماتها، وكانت أبحاثهم وآراؤهم منارة إهتدى بها علماء أوروبا فنقلوا عنها كل ما ساعدهم على إثبات حقيقة أو تكوين نظرية. ونتيجة لذلك أجمع العلماء على أن الحضارة العربية الإسلامية تحتل مكانه رفيعة بين الحضارات الكبرى التى ظهرت فى تاريخ البشرية - وقد ظهر بين العرب والمسلمين علماء أفذاذ أضافوا إلى علم الجغرافيا الجديد، وذلك عن طريق الأرصاد الفلكية ومشاهد الرحلات وتمحيص الروايات والمقارنة بينها، وكان من هؤلاء «اليعقوبى» و«المقدسى»، و«ياقوت»، و«المسعودى» و«الإدريسى» وغيرهم.

لقد كان «اليعقوبى» من أوائل الجغرافيين المسلمين الذى تطرق بكثير من الوضوح إلى الجغرافيا، وجعل لها مفهوما كبيرا، فذكر أسماء المدن والممالك، وتكلم عن مكانها، وأوضح المسافات بينها كما ذكر الأوصاف الطبيعية لتلك المناطق ورتَّبها إلى سهول وجبال، وتعرض لطبيعة مناخها.

وكان «شمس الدين المقدسى» من أوائل الذين اعتبروا الجغرافيا علما لابد من معرفته للتاجر والمسافر والملوك والكبراء والقضاة والفقهاء وغيرهم. وكتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» يقف فيه فى قمة سلسلة من المؤلفات الجغرافية العربية تعرف بأطلس الإسلام لأنها مؤلفات قامت على خرائط، وفيه وصف بلاد العرب، كما تحدث فيه عن معظم بلاد الإسلام التى زارها وبدأ بالحديث عن كل إقليم بجغرافيته الطبيعية ثم تبعها بالجغرافية البشرية وانتهى بالكلام عن النظام الإدارى ثم الناس، وأحوالهم وملابسهم ومأكلهم ومشاربهم.

ومدخل كتابه «أحسن التقاسيم» تعد قطعة من الأدب الجغرافى ترجمها إلى الإنجليزية "كريمر" فى عام ١٨٧٧ وإلى الإيطالية «نالينو» (١٨٩٥) وإلى الفرنسية جان سوفاجيه (١٩٤٦) .

وفى الحقيقة أن كتاب «أحسن التقاسيم» يعد تقريرا عن المعمورة كما راها المقدسى، والذى تحمل العديد من المشاق وتعرض للكثير من الأخطار ليكتبها، إن مثل هذا الرجل كما ذكر البعض «جوهرة تزين تاريخ حضارة البشر»(١). قال عنه المستشرق «شبرنجر» انه أكبر جغرافى عرفته البشرية قاطبة»، وقال فيه المستشرق «كرامرز» إنه أكثر الجغرافيين العرب أصالة، وأنه كان الأستاذ الذى علم أوربا فن الجغرافيا.

وبالنسبة لموسوعة ياقوت الجغرافية (١١٧٩-١٢٢٩م) (معجم البلدان) فقد احتوت على جميع معارف العصور الوسطى عن الكرة الأرضية إذ أوضح فيها كل ما يتعلق بعلم الفلك والعلوم الطبيعة والتاريخ وغيره.

وحول موسوعه المسعودى (مروج الذهب ومعادن الجوهر) فهى تعد كتابا فى الحضارة العالمية فى العصور الوسطى كما أنها تدل على دقة الكاتب وموسوعيته فهو رحالة جغرافى، ومؤرخ حضارة، وعالم طبيعة، ونبات، وحيوان. وقد قدم المسعودى هذا الكتاب بالحديث عن هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وجبالها وأنهارها وبدائع معادنها، وجزائر البحار والبحيرات فيها وأخبار الأبنية العظيمة وخلافه، كما وضع خريطة امتازت بتحديد كل من البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر أورال وأنهار النيل والسند والكانج. ثم انتقل المسعودى فى هذا الكتاب إلى أخبار كل شعوب الدنيا وكل الرسل والأنبياء، فتحدث عن الديانات الوثنية ومذاهبها وتطرق إلى أخبار المصريين والبابليين والأشوريين والعبرانيين واليونان والرومان ثم دخل بعد ذلك فى تاريخ الإسلام حتى وصل إلى عصر الخليفة العباسى الثالث والعشرون وهو المقتدر.

أما أهم جغرافى المسلمين وأكثرهم أثرا فكان الشريف عبد الله الإدريسى (١٠٩٩/١١٦٦) صاحب الدور الأكبر فى تجديد هذا العلم والعناية به لدرجة أن لقبه البعض بأنه كان أستاذ الجغرافيا الذى علم أوروبا هذا العلم وليس بطليموس. قام الإدريسى برحلات متعددة للعديد من بلدان العالم فزار مراكش، والبرتغال، وإسبانيا، واليونان، وفرنسا، وإيطاليا، ومصر، وآسيا الصغرى. ثم استقر بصقلية حيث استبقاه حاكمها النورمانى الملك «روجر الثانى» الذى كان شديد الإعجاب بعلوم

(١)حسين مؤنس : تاريخ موجز للفكر العربى ص ١٢٧.

الإسلام وآدابه وكلفه بوضع خريطة تمثل الكرة الأرضية وهذا دليل ساطع على أن «روجر» كان يعرف للعلماء العرب قدرهم، وهناك ألف الإدريسى كتابه «نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» وفيه تمسك بفكرة كروية الأرض كما وصف فيه مدن العالم المعروفة فى ذلك الوقت وصفا دقيقا، وهذا الكتاب يعد أكمل بحث جغرافى ورثته أوروبا عن العرب، وإلى جانب ذلك فإن خرائطه التى تزيد على الأربعين تعد من القمم التى بلغها فن رسم الخرائط فى العصور الوسطى[١] وهذه الخرائط محفوظه حاليا ببعض المتاحف الأوربية ومنها خريطة محفوظة بمتحف «سان مارتان» الفرنسى ترسم النيل آتيا من بحيرات جنوب خط الاستواء بعد أن تخبط الجغرافيون فى وصف منابعة وتعليل فيضانه.

ومن الخرائط التى رسمها الإدريسى والآراء التى أخذت عن العرب تلقى كولمبس صورته عن الكرة الأرضية وتمثيل الأرض كشجرة الكمثرى المستطيلة، وكانت الخريطة التى أوحت له هذه الفكرة هى خريطة الكاردينال «بطرس الإيلى» التى سماها خريطة الدنيا واعتمد فيها على المصادر العربية، ونشرها قبل كولمبس بنحو ثمانين عاما، وهى إضافة تحسب للجغرافيين العرب فى اكتشاف أمريكا، فلو لم يتمسك العرب بنظرية كروية الأرض ربما ما كان ليخطر ببال رحالة مثل «كريستوف كولمبس» أن يكشف عن الدنيا الجديدة، فالعرب لهم جليل الأثر فى الكشف عن نصف الكرة الغربى لما أشاعوا من نظريات مدعمة بالأدلة والبراهين حول كروية الأرض، وإلى جانب ذلك قام الإدريسى برسم خريطة للأرض على لوحة كبيرة، ثم قام بعملية حسابية معقدة لكى يستطيع نقل خريطة الأرض هذه على كرة من الفضة الخالصة، كان قد أعدها له روجر الثانى، وعلى هذه الكرة وضع المواقع، ورسم القارات والبحار والأنهار بغاية الدقة، كما كشف الحقيقة عن منابع النيل العليا، وبعد أن أتم ذلك شرع فى تحويل هذه الخريطة الكروية إلى خريطة مسطحة، وقد قسم الإدريسى بعد ذلك هذه الخريطة المسطحة إلى سبعة أقسام مستعرضه فوق خط الاستواء وقسمين جنوبه وتلك هى الأقاليم السبعة المشهورة فى النصف الشمالى من كرة الأرض وأصلها عند بطليموس ثم قسم هذه الخريطة إلى عشرة أقسام طولية بخطوط رأسية متوازية هى خطوط الطول، وبذلك حصل على سبعين قسما مربعا، فأخذ كل قسم ورسمه رسما مفصلا مكبرا يصفه بكل مافيه من معالم الجغرافية الطبيعية والبشرية، ويدون الوصف فى كتابه «نزهة المشتاق» وهو يأخذ الأقاليم إقليما إقليما، وفى كل إقليم يصف كل واحد من أجزائه على حدة.

---

(١) W.Durant : The Story of Civilization Vol IV.p. 329.

ونتيجة لذلك عرفت أوروبا مكانة الإدريسى واعتبروه مفخرة من مفاخر الإنسانية فنشروا كتاباته نشرا علميا دقيقا خاصة وأنها تتسم بالدقة والأمانه العلمية الفائقة. وإلى جانب هؤلاء فهناك الملاح العربى «شهاب الدين أحمد بن ماجد» الذى يعد أقدم من ألف فى علوم البحار فقد كتب فيها ثلاثين كتابا أهمها «كتاب الفوائد» الذى نشره المستشرق الفرنسى «جبرائيل فيران» (١٩٢١-١٩٢٣) وقد ضم هذا الكتاب معظم المعلومات النظرية والعلمية التى تهم الملاحين فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وبحر الصين، وقد جمع فيه خبراته الواسعة التى اكتسبها عن هذه البحار وأعماقها وجزرها وموانيها، والرياح التى تهب عليها[١].

ومن المعروف أن الذى ساعد العرب على القيام برحلاتهم العلمية والتجارية هو معرفتهم بالإبرة المغناطيسية، والبوصلة واستخدامها فى أسفارهم، هذا بالإضافة إلى معرفتهم بالنجوم ومطالعها ومغاربها واستخدام مجموعاتها فى التعرف على الإتجاهات فى عرض البحار. وهكذا كانت جهود علماء العرب فى الجغرافيا خير دليل على تطوير هذا العلم فقد تحدثوا عن كروية الأرض رغم أن الكنيسة كانت تقول بتسطيحها وتعتبر أن كروية الأرض من المسائل التى لايمكن التسليم بها[٢] وقام بعض علماء العرب بمحاولة استطلاع المحيط الأطلسى الذى كان يطلق عليه بحر الظلمات، كذلك فإن الأوربيين تعرفوا على البوصلة عن طريق الأندلس بعد أن نقل اليهود أسرارها إليهم، وعلموهم طريقة استعمالها، وعلى الرغم من تقادم الزمن فقد احتفظت البوصلة باسمها العربى فى بعض اللغات الأوروبية فهى بالفرنسية Boussole وبالإيطالية Bossala.

وهكذا أثرى العلماء العرب التراث الإنسانى بما تركوه من كتابات تدل على بحث دقيق، وما اخترعوه من أجهزة وما وضعوه من خرائط ساعدت المستكشفين فيما بعد على أن يطوفوا بالعالم وأن يرتادوا المجهول فى أراضيه، لقد تمثل أول فضل للعرب على الحضارة الغربية فى صيانتهم لأسس هذه الحضارة، ولو لم يهتم العرب بنقل علوم اليونان لانقطعت الصلة بين ماضى أوروبا وحاضرها خاصة وأن روح البحث العلمى فى أوروبا عند ظهور الإسلام كانت قد إنعدمت لفشل علماء الإغريق فى اكتساب رضاء علماء المسيحية فى عصورها الأولى، فقام العرب بربط العلم القديم بالعلم الحديث وأضافوا إليه ثم نقلوا ذلك إلى أوروبا ليساهم فى بناء عصر النهضة، لذلك استمر الرحالة الأوروبيون يعتمدون إلى حد كبير على المصادر الإسلامية فى ارتياد ما كان مجهولا لديهم من أرجاء الأرض،

(١) د. محمد الصياد : أثر العرب والمسلمين فى النهضة الأوروبية فى الجغرافيا ص ٢٩٣ .

(٢) Sarton : Introduction to the History of Science vol II,p.46.

ويبدو ذلك واضحا عند «ماركو بولو» الذى تحدث عن المعلومات التى استقاها من رسوم المسلمين البحرية فى سيلان.

كما يبدو خلال رحلات البرتغاليين لاكتشاف الهند، فلولا إرشاد الملاح العربى «أحمد بن ماجد» لفاسكودى جاما لضلت رحلته إلى الهند وفشلت جهوده الكشفية، يضاف إلى ذلك أن تفوق العرب فى فن الخرائط قد ساعد الرحالة الأوروبيين على تحديد مساراتهم. كما أن تمسك العرب بكروية الأرض ساعد كولمبس على التعرف على أن الاتجاه إلى الغرب يمكن أن يؤدى به إلى الهند.

## ٤- التاريخ

التاريخ علم من أهم العلوم الإنسانية وأعلاها قدرا، وأكثرها فائدة وهو كنشاط إجتماعى وسياسى واقتصادى بدأ مع بداية وجود المجتمعات البشرية حيث أنه يلبى حاجات هذه المجتمعات إلى معرفة ذاتها وما يدور حولها، فهو يتناول الجنس البشرى بكل ما انطوى عليه من التعقيد والتنوع، ويتيح له معينا لا ينضب من التجارب العلمية التى قد تعينه على الاستنباط، وتغنيه عن أن يمارس بنفسه مثل تلك التجارب من أولها إلى آخرها. وكان من الطبيعى أن ينال علم التاريخ نصيبه من الاهتمام والازدهار الذى ميز حركة الثقافة الإسلامية . ففى القرن التاسع والعاشر الميلاديين أدى المؤرخون المسلمون دورهم فى الربط بين أجيال الأمة الإسلامية وشعوبها ودورهم الذى ينبغى أن يكون لهم فى تاريخ البشرية، وفى كتابة تاريخ العالم منذ أن خلق الله آدم وحواء، وما تلى ذلك من تاريخ الأنبياء والرسل. وقد ساعدهم على ذلك فكرة وحدة العالم الإسلامى وما صحبه من حرية التنقل بين أرجائه سعيا وراء المعرفة. وتكشف كتابات «اليعقوبى» صاحب «كتاب البلدان» عن فكرة التاريخ العالمى التى سيطرت على مؤرخى ذلك العصر. كما أن كتاب «تاريخ الرسل والملوك» «لمحمد بن جرير الطبرى» يجسد النزعة العامة التى أوجدتها وحدة العالم الإسلامى. أما كتاب «فتوح البلدان» «للبلاذرى» فإنه يكشف عن عظمة الفتوحات الإسلامية وكيفية استجابة العديد من الشعوب للإسلام، وبالنسبة لكتاب «الكامل فى التاريخ» «لابن الأثير» فإنه صوَّر نظرة أساسية فى مفهوم التاريخ عند المسلمين وهى تقول أن تاريخ العالم ينقسم فى جملته إلى ثلاثة عصور تبدأ بالتاريخ القديم ثم السيرة النبوية فتاريخ العالم منذ وفاة الرسول إلى آخر الزمان، وبالنسبة لكتاب «المختصر فى تاريخ البشر» «لأبى الفدا» فهو كتاب فى تاريخ العالم وإن كان يميل إلى التركيز على أحداث بلاد الشام وعصر المماليك، والمغول. وحول كتاب المسعودى «مروج الذهب» فقد عرض فيه تاريخ غرب آسيا وشمال أفريقيا وشرق أوروبا.

أما عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) صاحب المقدمة فهو علم من قمم التاريخ، وصاحب المكانة الكبرى في إخراج علم التاريخ من السرد إلى التفلسف الذى يقف على الدوافع المحركة لتاريخ البشر، حيث يضع تصوراته حول ما يسمى بدورة العمران، أى تطور الجماعات البشرية من البداوة إلى الحضارة، والبداوة عنده هى الحياة البدائية البسيطة التى تتمثل فى البدو والفلاحين الذين يتكاثرون ويتجمعون حتى يتمكنوا من السيطرة على قواعد العمران وإنشاء الدول، والدخول فى طور الحضارة والاستقرار والملك، ورفاهة العيش ويعتمدون على الجند المرتزقة ثم تبدأ دورتهم فى التدهور والضعف نتيجة لحياة الترف والبعد عن خشونة العيش وصراع الحياة التى كانوا يعيشونها . ومن يقرأ كتابه "العبر" يشعر أنه يقرأ تاريخا علميا للعصور القديمة فهو يعرف اليونانيين معرفة واضحة ويفرق بينهم وبين المقدونيين، وهو يعرف أوليات تاريخ الرومان ويتتبع تطور دولتهم من عصر الملوك إلى الجمهورية إلى الإمبراطورية . كما يشعر قارئ هذا الكتاب أنه يقرأ كتابا فى التاريخ والجغرافيا والاجتماع معا، فهو لا يضع نظريات بل يؤرخ ويدرس ويحلل ويعلل الحوادث وأسباب قيام الأمم وعلل سقوطها ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك ويعطينا صورة واضحة للممالك القديمة والمعاصرة مما دفع أحد الباحثين الأوروبيين إلى القول بأن مقدمة ابن خلدون هى أساس التاريخ وحجر الزاوية فيه، ففيها تحليل مسهب وموضوعى للعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تفعل فعلها فى تكوين الوحدات السياسية وفى تطور الدول، وقد تمثلت نتائج هذا التحليل فى العلم الجديد الذى أوجده ابن خلدون(١) . لقد أتت مقدمة ابن خلدون وهى مقدمة كتابه الكبير فى التاريخ بفكرة أصيلة ورأى غير مسبوق وهو إنشاؤه لعلم العمران أو علم الاجتماع، ونظريته فى فلسفة التاريخ التى تعد من أقدم النظريات فى هذا المجال، والتى حاول فيها إبراز الأسباب التى تدفع المؤرخين إلى الخطأ فى التاريخ والتى كان من أهمها الجهل بطبيعة النظم الاجتماعية والقواعد التى تخضع لها هذه النظم، ومن هنا رأى ضرورة تخصيص علم لدراسة العمران أو الاجتماع لكى يدرسه المؤرخ قبل أن يبدأ تاريخه، وهو هنا يشبه «أوجست كونت» مؤسس علم الاجتماع عند الأوروبيين. وعلى حين يتخذ «ابن خلدون» علم الاجتماع وسيلة لتصحيح التاريخ يتخذ «مونتسكيو» الفيلسوف الفرنسى من التاريخ أساسا لبناء علم الاجتماع.

(١) هاملتون جب : دراسات فى حضارة الإسلام، بيروت دار العلم للملايين ١٩٧٩ ص ٢٢١ وانظر أيضا : عبد الحميد العبادى : علم التاريخ، القاهرة ١٩٣٧ ص ٦٤-٦٥ .

والجدير بالذكر أن المؤرخين الأوروبيين فى العصور الوسطى لم يهتموا كثيرا بدراسة تاريخ المسلمين إلا متأخرا، فقد بدأت عنايتهم به عندما بدأت حركة الاسترداد فى إسبانيا وعندما استعيدت صقلية واستولى عليها النورمان، ثم ازدادت معرفة الأوروبيين بتاريخ العرب والمسلمين عندما بدأت الحملة الصليبية الأولى[١]. وبدأت حركة الاحتكاك المسلح بين الشرق والغرب كما أن حركة التدوين التاريخى فى الشرق الإسلامى تأثرت أيضا بقيام هذه الحروب، فقد أدى التطور الذى حدث فى هذا المجال إلى التركيز على صفات البطولة العسكرية وكان ذلك استجابة للتحدى الذى فرضته الحروب الصليبية على الشرق الإسلامى باعتبارها عدوانا استعماريا، ومن هنا تعلقت الأنظار ببطل يلبى حاجات الأمة، ومن ثم جاءت الكتابات التاريخية فى هذا الصدد، واهتم المؤرخون بسيرة هؤلاء لاسيما صلاح الدين الذى نجح فى استرداد بيت المقدس من الصليبيين، ومن هذه المؤلفات كتاب "المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية" الذى يدور حول شخصية صلاح الدين ودوره فى الجهاد ضد الصليبيين، كما يتعرض لأحداث الحروب الصليبية فى حياته[٢]. كما ظهر من مؤرخى الغرب من الصليبيين "وليم الصورى" الذى يعد من أوائل هؤلاء المؤرخين الذين تأثروا بالدراسات التاريخية العربية، ومن أوائل من عرفوا المجتمع الأوروبى بالإسلام ودوله وشعوبه وحكامه وتاريخه(٣) . وفى أعقاب ذلك أخذت حركة الاستشرق فى أوروبا تنمو ناحية العناية بدراسة علم التاريخ كأساس للتعمق فى الدراسات العربية بصفة عامة، ومن ثم أخذ المستشرقون يهتمون بمعرفة تاريخ العرب والإسلام على حقيقته بالرجوع إلى ما كتبه العرب أنفسهم، وبتحقيق النصوص التاريخية الأصلية وترجمتها وطبعها إلى أن انتهى بهم الأمر بعد ذلك إلى التأليف فى تاريخ العرب والإسلام اعتمادا على المراجع العربية الأصلية. وبهذا دخلت حركة الاستشراق فى مرحلة جديدة فى دراسة أصول الحضارة العربية[٤] .

وخلاصة القول أن المسلمين تركوا للمؤرخ الحديث ثروة تاريخية هائلة يستطيع أن يتدارك منها ما فات غيرهم، كما أن العلم الحديث يسجل لهم أنهم أول من ضبط الحوادث بالإسناد والتوقيت الكامل، وأنهم مدوا حدود البحث التاريخى، ونوّعوا التأليف فيه وأكثروه إلى درجة لم يلحق بهم فيها

(١) جمال الشيال ومختار العبادى : أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية (فى التاريخ) كتاب اليونسكو ص ٣٣١ .
(٢) قاسم عبده قاسم : الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين القاهرة، دار المعارف ١٩٨٢ ص ٩٤-٩٥ .
(٣) عن ترجمة وليم الصورى ومؤلفاته التاريخية يمكن الرجوع إلى السيد الباز العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٦٢ ص ٩٩-١٥٢ .
(٤) الشيال والعبادى : بحث سبق ذكره ص ٣٦٨ .

من تقدمهم أو عاصرهم من مؤرخى الأمم الأخرى، وأنهم أول من كتب فى فلسفة التاريخ والاجتماع، وتاريخ التاريخ، وأنهم حرصوا على العمل جهد طاقتهم فى التمسك بأن واجب المؤرخ هو الصدق فى القول، والنزاهة فى الحكم، وعرض الحقائق بموضوعية ودقه[١].

## ٥ - الفنون والعمارة

وعن أثر الفنون الإسلامية فى الحضارة الأوروبية، فمن الواضح أن العرب استفادوا من فنون وحضارة البلدان التى فتحوها خاصة بلاد الفرس والروم، ثم نقلوها إلى أوروبا بعد أن وضعوا لمساتهم عليها، وأضافوا إليها مبتكراتهم مما كان له أثره فى الذوق الأوروبى، فقد بدأ الفن الإسلامى أولى خطواته متأثرا بالنماذج التى وجدها فى البلاد المفتوحة، ثم تطور بعد ذلك ليعبر عن نظرة الإنسان المسلم للكون والحياة، فتميزت بمدى إدراكه لإبداع الله تعالى، كما تميزت بشخصيتها الإسلامية وبروح الإسلام، وكانت المساجد هى أول المنشئات التى اهتم المسلمون ببنائها وزخرفتها وإعدادها إعدادا رائعا، ومن هنا برزت نواة الفن الإسلامى المتمثلة فى تحريم الصور والرسومات والتماثيل داخل المساجد، والاقتصار على تزيين المسجد بالآيات القرآنية وتزيين الأسقف والأعمدة بالرسوم الهندسية والثريات. هذا عن دور العبادة، أما عن القصور والمنشئات الاجتماعية والتجارية العامة التى عرفها العالم الإسلامى، فقد نجح الفنانون المسلمون فى المزج بين الفن الشرقى والفن الغربى فى وحدة جديدة وأعطوا ذلك المزيج الذى جاء نتاجا للترابط والاختيار طابعا خاصا بهم، ومن ثم فإن هذا الفن يدين بميلاده إلى الذوق العربى وإن كان قد تأثر بما قدمته حضارة البلدان المفتوحة خاصة الفرس والبيزنطيين.

لقد شملت الفنون الإسلامية كافة أنواع الفنون من تصوير ورسم وزخرفة وعمارة وموسيقى، ففى مجال التصوير أى رسم الإنسان والحيوان فبالرغم من أن بعض علماء المسلمين الأولين اعتبروه مكروها إلا أنهم لم يفتوا بتحريمه، فظهرت التصاوير فى البلاد التى استقرت فيها أمور الدولة الإسلامية واتسعت فى العصرين الأموى والعباسى حيث وجدت صور آدمية متقنة على جدران قصور بعض الخلفاء التى اكتشفت آثارها فى شرق الأردن وسامراء.

(٢) العبادى : علم التاريخ ، ص ٦٩ .

وفى مجال الزخرفة، فقد حوت جدران الجامع الأموى بدمشق، وقبه الصخرة بالقدس والمسجد النبوى بالمدينة بعض الزخارف بالفسيفساء، وأكثرها زخارف نباتية جميلة تبعث فى النفس الهدوء والراحة وانشراح الصدر، كما زينت بعض قصور السلاطين بالصور والرسومات التى وصفت بأنها لغة الفن الإسلامى.

وفى العصر العباسى انتشر فن الرسم والتصوير وصناعة التماثيل وبلغ ذروته فى قصور الخلفاء العباسيين، وظل يتابع تقدمه فى روعة لا مثيل لها.

أما عن العصر الفاطمى فقد تطور فن الرسم والتصوير تطورا كبيرا.

وبالنسبة للأندلس فقد برزت الصور الملونة التى ازدانت بها أسقف القصور فكان سقف قصر الملك فى قصر الحمراء، به صور تمثل فرسان العرب، وقد امتطى بعضهم صهوات جيادهم العربية وسدد بعضهم الآخر رماحه إلى صدور أعدائه، كما كانت به صور تمثل حسان العرب، وحيوانات مختلفة، وأشجارا ونباتات متنوعة مما يؤكد وجود بصمات الفنان العربى المسلم على هذه الرسومات. وعلى الرغم من إنكار بعض الأوربيين قيام العرب بابتداع هذه التحف الفنية، فإنه من المؤكد أن يدا عربية هى التى رسمت تلك الصور التى تعبر عن الفروسية والشهامة العربية والدليل على ذلك أن ألوان تلك الصور، وأساليب رسمها عربية صميمة، وأن العربى وحده هو الذى كان يرسم الفرسان العرب وهم يصرعون أعداءهم، يضاف إلى ذلك أنه توجد تحفة فنية فى متحف اللوفر تدل على مبلغ ما وصل إليه العرب من مستوى رفيع فى فن الحفر، وهذه التحفة التى عثر عليها الإسبان فى قرطبة والتى يدل تاريخها على أنها صنعت سنة ٩٦٨م عبارة عن لوحة خشبية أسطوانية حفرت على جدرانها صور نساء يعزف بعضهن على العود وتغنى الأخريات، وصور غزلان ونمور وفهود(١).

ومن ثم اقتبس رسامو أوروبا فكرة تزيين أسقف الكنائس والقصور بالصور الملونة، واتخذوا منها نقطة انطلاق للتجديد الفنى الذى حققوه فيما بعد. لقد وجد الفن الإسلامى فى تكوين الزخارف من النباتات والكتابات والأشكال الهندسية تعبيرا جديدا عن روحه الحقيقية، وعن ميله إلى مزج الأشياء المادية بالمعنوية. فحوّل المسلمون النبات إلى عنصر هندسى والكتابة إلى زخرفة نباتية، واستعانوا فى ذلك بأبرع العمليات الحسابية حتى توصلوا إلى تشكيل ذلك اللون من الزخرفة والتى أطلق عليها الأوروبيون اسم أرابيسك بالفرنسية Arabesque وبالإسبانية Ataurique أى التوريق، وقد عرف الإنسان المسلم ما يعرف الآن باسم الفن التجريدى لأنه كثيرا ما يأخذ الوحدة الزخرفية النباتية

(١) محمد مفيد الشوباشى : العرب والحضارة الأوروبية نقلا عن كتاب الشعراء التروبادور .

كالزهرة ويجردها من شكلها حتى لا تعطى إحساسًا بالذبول والفناء فيحورها فى أشكال هندسية تعطى الشعور بالدوام والبقاء. وقد استعان الفن الإسلامى بالعمليات الحسابية فى كل الآثار التى تمخضت عنها ملكات المسلمين الفنية فنلاحظ أن المحراب مثلا الذى نالت زخارفه قدرا كبيرا من العناية كيف تطور خطاه المتوازيان فى عقود الواجهة الخارجية إلى أن أصبحا محيطين لدائرتين يقع مركز أحدهما فوق الآخر كذلك نال جزءا آخر من المئذنة عناية خاصة . إذ أعمل فيها الذهن الإسلامى خياله وأجهد نفسه فى الحساب حتى جعل منها طابعا مميزا للفن المغربى، فاحتفظت المآذن المغربية كلها تقريبا بطابعها المربع الشكل، ولا يزال يرى فى أعلاها ذلك البرج الصغير المخروطى القائم على قاعدة المئذنة المربعة. لقد أعطى الفن المغربى أحسن النماذج عن عظمة الزخارف الخارجية والداخلية الإسلامية. ويتجلى هذا الفن فى أعمال الفسيفساء الملونة، وتناسق نماذجها الرائعة.ومن الملاحظ أنه فى مجال استخدام الكائنات الحية كان الفنان المسلم ينحو نحوا زخرفيا بعيدا عن محاكاة الطبيعة، كما أنه استخدم رسم الكائنات الخرافية، وساعده خياله الخصب على ابتكار أشكال كثيرة مثل الفرس ذو الوجه الآدمى، أو الصقور ذات الوجوه الآدمية الذى أطلق عليه اسم البراق . وقد وجد الفنان المسلم فى ذلك متنفسا له يبتعد فيه عن محاكاة الطبيعة وتصوير المخلوقات البشرية والحيوانية التى يحرم تصويرها بعض العلماء. وقد أنتج الصانع المسلم أوانى معدنية على أشكال حيوانية وهى إما للوضوء أو مباخر قد امتلات أسطحها تماما بالرسوم الزخرفية التى تحمل الكثير من الآيات القرانية وعبارات الدعاء. يضاف إلى ذلك أن الخط العربى استخدم كعنصر زخرفى حيث وجد الفنانون المسلمون فى الحروف العربية أساسا لزخارف جميلة زينت بها العمائر، وأقبل المسلمون على اقتناء نماذجه الجميلة خاصة وانه صالح للزينة بطبيعته، وقابل للانسجام مع النقوش العربية، فهناك الخط الكوفى الذى يستعمل فى كتابة المصاحف والنقش على العملة وعلى المساجد وشواهد القبور، وهناك خط النسخ الذى استعمل فى نسخ الكتب والتدوين . وقد أشار الباحثون إلى أمثلة لكتابات عربية أعجب الأوروبيون بفنها الزخرفى ونقلوها دون معرفة المكتوب عليها لتزيين أسقف القصور والكنائس رغم أنها كانت ذات مسحة إسلامية بحته. وبالنسبة لفن العمارة فقد اهتم العباسيون بهذا الفن اهتماما كبيرا، فبنى «أبو جعفر المنصور» على نهر دجلة عاصمته بغداد على شكل دائرى مما يعد ظاهرة جديدة فى الفن المعمارى الإسلامى، هذا إلى جانب المدن الأخرى التى شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور فخمة . وقد اقتبست أوروبا فنون عمارتها من العرب، ويتجلى ذلك فى تأثير العرب المعمارى فى إسبانيا وفرنسا. ففى شمال

فرنسا نقلت عقود زخرفة بوابة عن بوابة الفتوح فى القاهرة، وفى إسبانيا تأثرت العمارة هناك تأثرا بالغا بالتقاليد المعمارية الإسلامية وكانت أولى المناطق التى ظهرت فيها قوة هذا التأثير هى شمال إسبانيا خاصة فى مقاطعات ليون وقشتالة وجليقية من جهة وفى بلاد قطالونيا من جهة أخرى . لقد فرضت العمارة الإسلامية على عناصر العمارة المسيحية العديد من الظواهر مثل النوافذ المزدوجة، والعقود المنسوخة، والعقود الثلاثية الفتحات ومثل الشرفات والكوابيل والأبراج ومثل القباب المضلعة ومثل الزخارف والمنحوتات الغائرة المتعددة الألوان وغير ذلك من الأشكال والعناصر[١] وكانت الفكرة الزخرفية هى وحدها التى أوحت للفنان الأوروبى منذ القرن الرابع الهجرى فكرة الاقتباس من حروف العربية وتسجيلها بالحفر على تيجان الأعمدة والكنائس وعلى عقود بواباتها[٢].

أما عن فن العمارة الحربى فيلاحظ أن الصليبيين أخذوا عن العرب العديد من فنون التحصين وعمل الاستحكامات عن طريق تقليد القلاع الإسلامية التى شاهدوا الكثير منها أثناء حروبهم مع المسلمين[٣].

وقد برز الفنانون العرب فى العديد من الصناعات مثل صناعة الفخار وما يرتبط بها من القيشانى والخزف، وما زال يوجد حتى الآن فى إسبانيا والبرتغال أنواع مختلفة ونماذج رائعة من تربيعات القيشانى التى خلفها المسلمون، ولم يجد المسيحيون حرجا من استخدام ذلك القيشانى المصنوع بأيد عربية فى تزيين كنائسهم وقصورهم.

وقد اعتاد العرب أن ينقشوا على هذه الأوانى الخزفية بعض زخارف بالخط الكوفى أو أنواعا أخرى من زخرفة النبات. وما زالت المتاحف الأوربية تحوى كثيرا من الأوانى الخزفية التى صنعت فى بعض بلدان أوروبا تقليدا لأوانى عرب الأندلس. وكذلك تقدم العرب فى صناعة الزجاج تقدما كبيرا تشهد عليه أوانيهم الزجاجية المذهبة أو المطلية بالميناء، لدرجة أن أصبح الزجاج العربى معروفا فى أوروبا العصور الوسطى[٤]. خاصة وأن قصور ملوك وأمراء أوروبا كانت تستجلب لها من مصر والشام التحف الزجاجية. وسرعان ما اتقن أهل البندقية هذا الفن ونقلوه إلى مراكز أوروبية أخرى.

(١) أحمد فكرى : فى العمارة والتحف الفنية، مرجع سابق ذكره ص ٣٧٨-٤٠١ .
(٢) القوصى : الحضارة الإسلامية ص ٣١٣-٣١٤ .
(٣) سعيد عاشور : مرجع سابق ص ١٩٨ .
(٤) سعيد عاشور : المدينة الإسلامية ص ١٩٠-١٩١ .

أما التحف الإسلامية المعدنية فكانت أولى الاقتباسات الأوروبية منها أشكال للأباريق البرونزية أو النحاسية واستخدامها لسكب الماء والخمر فى الكنائس وكانت هذه التحف تلقى رواجا كبيرا فى بلاط الملوك والأمراء الأوروبيين.

وبالنسبة لفن السجاد الإسلامى فقد ذاعت شهرته فى أوروبا العصور الوسطى، فكانت دور الطرز المنتشرة فى البلدان الإسلامية تنتج أنواعا مختلفة من المنسوجات المنقوشة بخيوط الذهب والفضة ويقوم ملوك وأمراء أوروبا بشرائها، كما كانت تلقى رواجا كبيرا فى الأسواق الأوروبية ثم تطورت الأمور وقامت مصانع النسيج فى صقلية بتقليد المنسوجات الحريرية الإسلامية الذى كانت تنتجه المصانع العربية فى صقلية ثم انتقلت هذه الصناعة بعد ذلك إلى العديد من المدن الأوروبية.

ومن أبرز الأمثلة على التأثيرات العربية فى النسيج العبارة التى نسجت لملك صقلية روجر الثانى فى عام ١١٣٤م ليرتديها فى حفل تتويجه ومكتوب عليها بالعربية عبارات الدعاء للملك وتعظيمه وفقا للتقاليد الإسلامية . وقد واكب هذه النهضة العلمية نشاط صناعة الورق ونسخ الكتب وتصحيحها وتجليدها مما ساعد على انتشار الفكر العربى فى مختلف الأمصار.

لقد اقتنع علماء الآثار المستشرقون بعبقرية المعماريين المسلمين وأشادوا بابتكاراتهم، واعترفوا بآثارها على النهضة الأوروبية، وكذلك اعترفوا بعبقرية الفنان العربى المسلم فى الصناعات الفنية والخزفية، فقد أخرج هؤلاء الصناع منذ القرن الأول الهجرى مجموعة ضخمة من التحف الخزفية والفخارية والزجاجية والخشبية والعاجية والمعدنية مختلفة الأنواع والألوان والأشكال وكانت جميعها مزوقه محلاة بأنواع من الزخارف المطبوعة بالطابع الإسلامى والمنبثقة من الخيال العربى.

وانتشرت التحف الإسلامية فى أسواق أوروبا العصور الوسطى ولقيت فيها رواجا كبيرا وأقبل على شرائها الملوك والأمراء والأثرياء مما أثار الغيرة لدى الصناع الأوروبيين وحفزهم على محاكاتها سواء من حيث أساليب الصناعة أو طرز الزخرفة، ولعل أبرز الأمثلة على ذلك أن «ليوناردو دافنشى» فنان عصر النهضة أقبل على دراسة الزخرفة الإسلامية، وفى رسوماته نجد نماذج عديدة من زخرفة الأرابسك Arabesque. ومثلما أيقظ الفن الإسلامى فى نفوس المسلمين الحاجة إلى الحضارة وشكل حياتهم العامة والخاصة على السواء، فإن الفن الإسلامى الذى بدأ أصلا فى المسجد، احتضن كذلك الحاجات الدنيوية لحياة الناس العامة والخاصة.

والأمثلة على ذلك مارستان القاهرة الذى يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى، والذى بناه

السلطان الناصر قلاوون ١٢٨٥م، والذى كانت الجداول ذات المياه الجارية تتخلله على نحو ما كان متبعا فى قصور الأمراء، وكانت الموسيقى تعزف به يوما بعد آخر، والذى طبقت فيه كل العلوم الطبية التى تجعل إقامة المرضى مريحة وسهلة. وإلى جانب ذلك كانت هناك قصور الأمراء التى أبدع الفنانون فى إنشائها ليس فى المشرق فحسب، بل وفى المغرب وإسبانيا أيضا، والتى لم يبق منها فى قرطبة غير أطلال زهراء «عبد الرحمن الناصر الأموى» وقصر «الوزير المنصور» وكذلك بهو السباع فى الحمراء مما يوضح لنا ما بلغه الفن الإسلامى من تطور ورقة[١].

وهكذا أضافت الفنون الإسلامية إلى التراث الفنى العالمى نظما لم تكن معروفه من قبل منها أنظمة المساجد والأضرحه والمدارس وأدخلت على نظم المساكن والقصور والحمامات والحصون والأسوار أنظمة جديدة، وابتكرت العمارة الإسلامية عناصر جديدة منها أشكال العقود فأصبحت متعددة المظاهر والتراكيب، ومنها أشكالا جديدة من التيجان تختلف عما كان موجودا فى العمارات القديمة، وابتكرت فى العصور الإسلامية الصنج المعشقة وظهرت أشكال المحاريب واتخذت عنصرا من عناصر الزخرفة وازدهرت الزخارف المعمارية واتخذت لها خصائص امتازت بها سواء من حيث تصميمها وإخرجها الفنى أو من حيث موضوعاتها وأساليبها. وللعلاقات الفنية بين العرب والمسلمين من جهة والأوروبيين من جهة أخرى تاريخ حافل منذ القرن الثامن الميلادى من منتجات فنية فيها التحف الخشبية والعاجية والمعدنية، ومنها الأوانى الخزفية والزجاجية، ومنها المخطوطات المصورة ومنها أنواع الأقمشة والسجاد.

## ٦ ـ الموسيقى

أما عن الموسيقى فهى من الفنون الحسية التى كان للعرب دور كبير فيها فقد ترجموا مالدى اليونان والبابليين والفرس والآشوريين والمصريين، كما ألفوا وأضافوا العديد من الأنغام والآلات المبتكرة، فلم يكتفوا بالأخذ ممن سبقهم وإنما أخذوا الصالح منه وعدلوه وأضافوا إليه ما يناسب ذوقهم مما كان له أثره على الفن الأوروبى. فالعود مثلا كانت له أربعة أوتار فأضافوا إليه وترا خامساً وهكذا.

وقد تأثرت الموسيقى الغربية بالمسلمين، فلم يعرف الغرب أى نوع من أنواع الانسجام الموسيقى فى العصور الوسطى إلا بعد أن تعرف الأوروبيون على البلاد الإسلامية وقويت صلة أوروبا بها، ومنذ ذلك الوقت ظهر فى الموسيقى الغربية نوع من التناسق والانسجام.

(١) ى . هل : الحضارة العربية - ترجمة إبراهيم العدوى ص ١٢٥-١٤٨ .

لقد ازدهرت الموسيقى العربية وتطورت آلاتها لاسيما فى بغداد التى صار لها مركز الصدارة والشهرة فى هذا الفن، ومن أشهر المغنيين والمغنيات فى العصر العباسى الأول «يقمر البغدادية» و«إبراهيم الموصلى» وابنه «اسحق» و«تلميذه» «زرياب» الذى هاجر إلى المغرب والأندلس وحمل معه إلى هناك الموسيقى الشرقية التى ما زال تأثيرها فى الموسيقى التى تعرف باسم الموسيقى الأندلسية، كذلك برع فى دراسة الموسيقى من الناحيتين النظرية والعملية عدد من كبار العلماء المسلمين أمثال «الكندى» و«الفارابى» والخليفة «الواثق» العباسى.

وقد انتقلت هذه الحضارة المزدهرة التى اختصت بها بغداد إلى العديد من الأقطار الإسلامية ومنها الأندلس، فقد ازدهرت الموسيقى العربية المنقولة من بغداد إلى الأندلس وتعلمها طلاب العلم الأوروبيون الذين كانوا يفدون إلى «قرطبة» للدراسة، كذلك استخدم حكام قشتالة وأرغونة المسيحيون موسيقيين من العرب[١]. كما تمت ترجمة مؤلفات علماء المسلمين فى علم الموسيقى إلى اللاتينية ويؤكد ذلك العدد الكبير من المصطلحات والأسماء الموسيقية العربية التى نقلت إلى لغات أوروبا بأسمائها العربية، فالكثير من الآلات الموسيقية الحديثة التى عرفها الأوروبيون ترجع أصولها إلى الآلات التى ابتكرها الموسيقيون المسلمون. ولقد نقلت بعض هذه الآلات الموسيقية الإسلامية كما هى إلى الغرب واحتفظت باسمها العربى مع إدخال بعض التحريف عليه. ومن هذه الأسماء نجد كلمة عود التى تطلق على هذه الآلة تدخل فى جميع اللغات الأوربية كما هى مع تحريف بسيط فيها فهى :

| | | | |
|---|---|---|---|
| فى الأسبانية : | Laud | ، فى البرتغالية : | Alaude |
| فى الفرنسية : | Luth | ، فى الألمانية : | Laute |
| فى الروسية : | Ljutnja | ، فى الفنلندية : | Luuto |
| فى السويدية : | Luito | ، فى الانجليزية : | Lute |
| فى الإيطالية : | Luito | ، فى الدانمركية : | Lut |
| فى البولونية : | Lutnia | ، فى المجرية : | Laut |

كذلك نجد لفظ Guitar مأخوذ من القيثارة العربية، ولفظ Trombate Tabel مأخوذ من الطبل، ولفظ Naker هى النقارة العربية، ولفظ Adufe هو الدف، ولفظ Sonajas هو الصنوج،

(١) عاشور : مرجع سابق، ص ٢٠٤ .

ولفظ Anafil هو النفير، ولفظ Corno ،Horn هو القرن، ولفظ Rubella هو الربابة، ولالفظ تروبادور مشتق من الطرب أو طروب وهكذا(١).

ويؤكد المستشرق الفرنسى جوستاف لوبون أن الرقص والموسيقى فى إسبانيا ما زال لهما تأثيرهما العربى حيث يقول : «إن تأثير العرب فى إسبانيا، برغم أنه قد زال تماما الآن، إلا أن بعض المدن الإسبانية، ولاسيما أشبيلية، ما زالت حافلة بذكريات العرب، ولا تزال بيوتها تبنى على الطراز الإسلامى، وهى لا تختلف عن نماذجها إلا بفقر زخارفها، ولا يزال الرقص والموسيقى فيها على الطريقة العربية(٢).

وهكذا كان للحضارة العربية الإسلامية الفضل فى تمدين أوروبا طيلة ستة قرون. كما أكد الشعراء التروبادور ذلك فذكروا أن العرب لم يتوقفوا على تجديد الاتهم الموسيقية بل ابتدعوا الربابة من الة القوس ذى الوتر الواحد، ومن الربابة العربية عرفت أوروبا الكمنجة، وقد أدخلوا كذلك تحسينات جوهرية على اللوت والعود والقانون. كما ذكروا أن تطور الموسيقى يتوقف كذلك فى عصرنا الحاضر على ما يمكن أدخاله على الاتها من تحسين، ولولا الكمنجه التى تولدت من الربابة لظلت عبقرية «باخ» و«موزار» خرساء، ولظلت اذاننا صماء لا تسمع النغمات الساحرة التى تشجيها وتسكرها فى هذه الأيام، يضاف إلى ذلك ما اعترف به أحد الأوروبيين بقوله أن «الموسيقى الأوروبية بنيت فى أواخر العصور الوسطى من أصل عربى(٣) بهذه الصراحة اعترف بعض الأوروبيين بأن الموسيقى الأوروبية مدينة للعرب بالمستوى الرفيع الذى وصلت إليه فى عصرنا الحاضر.

لقد فطن العرب إلى تطوير فن النظم وقرضوا الشعر الغنائى الملائم للنغم الموسيقى، وارتقى فن الغناء على نغمات الموسيقى فى الحفلات الغنائية التى اشتهرت بها قصور بغداد، ثم قصور الأندلس بعد ذلك.

وفطن الموسيقيون العرب بأوزان الشعر العربى الدقيقة إلى التوقيت الموسيقى الذى أصبح أساس النهضة الموسيقية العربية، ولعل الرقص على نغمات الموسيقى المنوعة النغمات هو ابتداع عربى(٤).

(١) القوصى : مرجع سابق ص ٣١٨-٣١٩ .
(٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٥٧٥-٥٧٩ .
(٣) ل. فيتيس : التاريخ العام للموسيقى جـ٥ ص ٧ .
(٤) الشوباشى : مرجع سابق ص ٨٤-٨٦ .

لقد عرفت أوروبا لأول مرة مظهر الموسيقيين المتجولين الذين ظهروا أول ما ظهروا فى إسبانيا خلال القرن العاشر الميلادى وهم يعرضون أغانيهم ورقصاتهم مرددين فيها ملامح البطولة وما نقلوه عن عرب الأندلس وغيرهم من قصص ألف ليلة وليلة وألوانها، وعرفت أوروبا ألوانا جديدة من الغناء الشعبى عرفت أغانى التروبادور تتغنى بأوزان جديدة من الشعر استمدوها من ألوان الموشحات والأزجال والأغانى الأندلسية، وكان فى طليعة أغراضها الغزل والتغنى بجمال الطبيعة والمدح والحماسة مما يعد من الأسس الأصلية فى ألوان الشعر العربى لاسيما الغنائى منه.

وقد قامت طائفة من المستشرقين بتقصى الحقائق التاريخية نذكر منهم «بروفنسال» Provencal و«دوزى» Dozy أوردوا فيها كثيرا من فنون الموسيقى والشعر الغنائى فى العديد من الدول الأوروبية ووازنوا بينها وبين مثيلاتها من التراث العربى مستشهدين فى ذلك على أنها كانت انعكاسا لما احتوته الأندلس والحضارات العربية من هذه الألوان المبتكرة.

وقد أثبت هؤلاء الباحثون أن بعض قصائد شعر التروبادور تتألف من أنماط وأجزاء تشبه إلى حد كبير فى ترتيبها أنماط الموشحات وبعض ألوان الأغنيات العربية، كما رأى بعضهم أن كلمة تروبادور ما هى إلا تحريف لعبارة «طرب دور» أى دور طرب بالعربية مع تقديم الصفة على الموصوف كما هو الحال فى معظم اللغات الأوروبية، كما رأى البعض الآخر أن كلمة "تروب" تعنى بالإسبانية فرقة والمقصود فرقة غنائية أما دور فهى عربية واضحة المعنى وتدين أوروبا للعرب فى أكثر آلاتها الموسيقية فقد انتشرت منذ القرن التاسع فى ممالك أوروبا آلات الموسيقى العربية كالعود.

أما عن تأليف الأصوات وانسجامها وهو ما يعبر عنه الغربيون باسم «الهارمونى» فقد كان الأساس فى ذلك راجعا أيضا إلى ما سبقهم إليه العرب فى هذا الميدان. ولعل فيما ذكره ابن سينا فى «كتاب النجاة» تحت عنوان «محاسن اللحن» ما يضع أمام التاريخ صورة واضحة لمبادئ علم تعدد التصويت الذى وصف ابن سينا أنواعا منه فذكر أن تعدد التصويت من محاسن اللحن لا من أساسياته فكذلك كان الشأن فى استخدام أوروبا لهذا النوع من تعدد التصويت إذ اعتبرته هى الأخرى فى بداية استخدامها له من محاسن اللحن[١].

ومما سبق يتضح أن نواحى المعرفة فى أوروبا العصور الوسطى، تأثرت من قريب أو بعيد بالحضارة العربية الإسلامية تأثيرا شاملا فى كافة مناحى الحياة، مما يؤكد مدى تأثر الفكر

(١) د. محمود الحفنى : أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية (الموسيقى) ضمن كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية (سبق ذكره) ص ٤٢٣-٤٢٩ .

الأوروبى بالتراث العربى فى العصور الوسطى، ويوضح اهمية التواصل الحضارى بين الأمم. كما أن المبادئ التى نادى بها الإسلام، والتى استطاع بعض الخلفاء والأمراء العرب السير على هديها هى التى جعلت من حضارة الإسلام حضارة عالميه تضافرت فيها جهود العلماء من كافة الأمم لخير البشرية وقد اكد ذلك الكاتب الأمريكى ول ديورانت بقوله "بلغ الإسلام فى ذلك الوقت أوج حياته الثقافية، وكنت تجد فى ألف مسجد منتشرة من قرطبة إلى سمرقند علماء لا يحصيهم العد، كانت أركانها تدوى بفصاحتهم، وكانت جميع مسالك العالم الإسلامى تعج برجال الدين، والجغرافيين والمؤرخين، الذين لا يحصيهم العد، انتشروا فى الأرض بحثا وراء المعرفة والحكمة .. لقد استطاع العرب أن يستوعبوا ما كان عند الأمم المفتوحة من ثقافات بما اتصفوا به من سرعة الخاطر، وقوة البديهة .وكانت القاهرة والإسكندرية والقدس وبعلبك وحلب ودمشق والموصل ونيسابور وغيرها من المدن تزهو بمدارسها»[١].

كما اكد ذلك ايضا الأستاذ نيكلسون بقوله : «لقد صحب الفتوحات الإسلامية نشاط فكرى لاعهد للشرق بمثله من قبل، حتى لاح أن الناس ابتداء من الخليفة إلى اقل المواطنين قد أصبحوا طلابا للعلم»[٢].

وهكذا نمت الحضارة العربية الإسلامية فى بلاد تعد من أعرق البلاد التاريخية حضارة، فعلى أرضها نبتت شجرة الحضارات القديمة بكل مقوماتها الأصيلة، وفيها تهيأت أسباب التقدم الحضارى بالنسبة لبقية أجزاء العالم الأخرى، وعندما انتشر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية وامتد إلى بلاد اسيا وأفريقيا كان العرب يدعون إلى الإسلام، ويمثلون الحضارات المختلفة فى البلاد التى حلُّوا بها، وكانوا مؤثرين ومتاثرين، وناشرين ومبدعين لحضارتهم العربية الإسلامية حتى غدت تراثا ونتاجا دائماً وخالداً[٣].

* * * * *

(١) W.Durant The Story of Civilization Vol. IV., p. 237

(٢) R.A. Nicholson : ALiterary History of the Arabs p. 281

(٣) المجلة التاريخية المصرية المجلد ١٣ عام ١٩٦٧ مقال للدكتور نور الدين حاطوم تحت عنوان «لقاء الحضارات».